

حنّا مينة

بقلم
رياض عاصم

الحب والكلام... والكتابة على الكيس (العمل)

هذا الاعتراف الصادق يقودنا الى عدة استنتاجات هامة ، ستكون عماد دراستنا :

★ هناك تناقض بين هذا التصدير وبين نشر القصص عام ١٩٧٦ في مجموعة «الابنوسة البيضاء» . لكننا في حين نقدر تواضع الكاتب ، لا نشاركه عدم اسفه على ضياع اية قصة له .

★ كما يبدو من التاريخ المذكور (١٩٤٥) فان القصة اسبق لديه من الرواية ، ولعلها كانت الجنس الادبي الاوسع انتشارا بوجه عام في وطننا ، قبل ان ينتقل بعض كتابها الى الرواية والمسرح .

★ ان القصة القصيرة عند مينة فن ثانوي لا يوليه كبير اهتمام حتى اليوم .

★ عدم اهتمامه بجمع القصص وحفظها رغم نشرها متفرقة يدلنا على انه عبر عن مواضيعها بشكل اخر ، اي من خلال رواياته . بالتالي يمكننا اعتبار قصصه القصيرة مجرد تخطيطات اولية لروايات ، او فصولا من روايات ، او رسدا لشخصيات تظهر فيها .

واحيانا تكون تسجيلا لوقائع يومية حقيقية سبق ان عاشها المؤلف نفسه بجميع التفاصيل المذكورة فيها .

★★★

اذا حاولنا التطبيق العملي لهذه الاستنتاجات لرأينا علاقة بين قصته القصيرة « علبة التبغ » وروايته « الثلج يأتي من النافذة » ، وبين قصته « على الكيس » و « رسالة من أمي » وروايته « بقايا صور » ، كما نكاد نلمح ظلا خفيفا من شخصية ديمتريو في اكثر من عمل له ، وعلى الاخص في روايته « الشمس في يوم غائم » . هذا ما يدفعني الى الاعتقاد ان معظم القصص التي ضاعت او حذفت تتعلق برواياته الاخرى التي تلمح فيها جو البحر والرجال الاشواوس .

من جانب آخر نستطيع ان نلاحظ بسهولة ان البطل الحقيقي في معظم قصصه هو نفسه ، اكان طفلا ام رجلا . بالتالي فالقصص عبارة عن تسجيل لتجاربه الشخصية في الحياة ، وقد استخلص بحسه الشاعر المرهف دلالة

حنّا مينة هو عملاق الرواية السورية ، واحد ابرز كتابها العرب . انه ظاهرة فريدة ، فالادب بالنسبة اليه ليس شكلا ولا مضمونا : انه تعبير عن تجربة ومعاناة واقعتين . ولحسن الحظ ، امتدت الحياة كاتبنا منذ طفولته بظروف من الفقر والغربة والقهر السياسي جعلت لديه فيضا من المادة القصصية الغنية ، لكنه حسن حفظا وليس حسن حفظه . المهم ان مينة ظل يفيض علينا بصور الواقع والصراع الاجتماعي والشخصيات الانسانية المختلفة عاما بعد عام ، منذ « المصابيح الزرق » حتى « الياطر » و « المستنقع » . لان ذخيرته كبيرة ، ولان ذاكرته قوية ، لم تنته موضوعاته ولم تضعف حرارته ، بل ان ذكريات طفولته البعيدة ظلت اكثر مثولا وتأثيرا من موضوعات الشباب الاقرب الى حياتنا المعاصرة : ان « الشرع والعاصفة » و « بقايا صور » مثلا اروع من « الثلج يأتي من النافذة » و « الشمس في يوم غائم » . جدليا ، ينتقل هذا التفوق الى الشكل ، والشكل عند حنا هو اسلوبه . لقد ازدادت لغته الشعرية ، البسيطة والمعبرة ، غنى وكثافة وايجاء وملحمية ، فأصبح جمالها وتجميلها قرينين لصدق الواقع ونقاء الفكر : انه ببساطة يقف في قلب المسحوقين ، ويعبر عن الالمهم ، عن تمردهم ، عن ارهاصات الثورة ، عن احلام المثقفين ، وعن الخيبة والقهر والضعف الانساني . باختصار اكبر : حنا مينة من خلال عناوين بعض رواياته (الشرع والعاصفة - الثلج يأتي من النافذة - الشمس في يوم غائم) يرسم صورة التحدي الانساني الكبير في وجه الطبيعة والظلم الاجتماعي في آن وعن اجترار الامل من خلال العمل ، والتفاؤل من قلب معاناة الصعاب القائمة . انه اديب لم ينس اصله ، ولم يتنكر لطبقته ، بل ظل ملتزما بهوم وآمال المسحوقين والشعراء والفنانيين في كل اعماله .

يقول متحدئا عن تجربته : « لقد بدأت حياتي الادبية بكتابة القصة القصيرة عام ١٩٤٥ ، ونشرت اقصيص في صحف ومجلات سورية ولبنان ، ولكنني لم اجمعها ، وبعضها ضاع . وانا ، كما قلت في مناسبات عديدة ، غير اسف عليها » . (١)

قطعة أرض . سأختارها بعناية . بعيدة عن العمران ، قريبة من البحر والغابات ، ناعمة الرمل ، ملساء الحصى ، مفتوحة للرياح ، مكشوفة للشمس والقمر والليل . وعلى هذه الأرض سأقيم بناء ، منارة على شاطئه ، تقولان ؟ ربما ، انما انا الحارس والمحروس والمرشد والزورق النائه . في الشتاء اجعله محطة يأوي اليها الصيادون والمنبوذون والذين تكسر العواصف قورا بهم ، وفي الصيف مسبحا ، يدخله الذين في قلوبهم توق الى المغامرة . لن اتقاضى اجرا . من كل حكاية في الشتاء ، ومن كل ابتسامة في الصيف . من لا يتسم من قلبه ، ويفضب منه ، وينزعه من صدره ، عند الحاجة ، ويلقي به في النار ، لن يدخل مملكتي . لا اعتبار الا لهذا . . قد اقبل الرجل وارفض المرأة ، وقد اقبل الزوجة وارفض الزوج . كل شيء يتوقف على البقعة البيضاء في الداخل » .

نستنتج :

★ توق الكاتب الى مدينة فاضلة .

★ رفضه للاخلاقيات التقليدية الزائفة ، وتطلعه الى الصفاء الروحاني الصادق .

★ حسه الصوفي الخالص تجاه الطبيعة ، ورغبته في منح ما يستطيع من متعها للابرياء الاحرار .

★ شعوره بالتوحد والعزلة ، بل ربما استمتاعه بهما .

ولنتابع القراءة : « غاييتي ان ارى الناس سعداء ، غير مملين ، فرحين ، جريئين ، لا يخافون العاصفة ، وليس لديهم اكياس يجمعون فيها القشور والاصداف وحطام البيوت . اكره التفاهة ، والاشياء العادية ، والخبث الافعواني . . واللفظ ايضا . لن اقبل لطفاء ، هؤلاء اخشى من اخشاهم . وخارج بنائي سيبقى الذين يهابون قروش البحر وذئب البر . قد تأتي القروش والذئاب ، وتهاجم البناء ، وتدخله ، ولكننا سنقاتلها حتى نبيدها او نخرجها . . انا لا اضمن كل شيء ، كل انسان ، ولكن التجارب هي المحك ، وبعدها يلقي من على الاسوار من تسلل في ثياب مزوقة » . (٢)

نستنتج ايضا :

★ كره الكاتب للملكيات الفردية ونزعه الاشتراكية الواضحة .

★ رفضه للضعفاء واللفطاء والمزوقين ، وحبه للرجال الاقوياء المتحدين (كالطراوسي والمرسلي) في روايته « الشراع والعاصفة » و « الياطر » .

★ ايمانه بالكفاح المسلح وبالصمود في وجه الهجمات المعادية للسلام .

هذه الاستنتاجات بالنسبة اليها لا تقتصر على قصة

انسانية مما مر به ، ثم سجل الموقف في قصة : (على الاكياس - رسالة من أمي - هذا ما بقي منه - كاتب) . بالفعل - وهذا استثناء - الشكل ليس مهما في أدب حنا مينة ، على الاقل في الظاهر . انه بسيط من ناحية التقنية الروائية ، يلجأ لطريقة السرد المباشر وترتيب الاحداث ضمن تسلسلها الزمني الطبيعي ، متجنباً كل اساليب الرواية الجديدة بقدر الامكان . لكن مينة هو شاعر الكلمة النثرية ، وخالق شخصيات لا تنسى بصدقها الفني وتجسدها الانساني . وفي الوقت الذي يعبر فيه ببساطة ولغة يومية في حوار الشخصيات ، تراه يعبر بلغة شعرية مكثفة وقوية وموحية عن المواقف والاحداث . ان لغته مطواعة الى حد غريب لكل موقف من المواقف ، فالشاعرية الغنائية لوصف الطبيعة والتعبير عن مشاعر الحب ، والمحمية لتجسيد الصراع ضد الطبيعة او المرض او القهر الانساني ، ولغة قريبة من العمالية المحكية المفصحة للحوار . الخ .

الشكل هو الاسلوب عند حنا مينة ، فقصصه ليست ذات حبكة درامية متينة او مشوقة ، ولو كتب كاتب عادي نفس القصة لما صمدت حتى لقراءة واحدة . لعل هذا نابع من احساسه الفطري العميق بالطبيعة وتأثره بها . ان الطبيعة لديه هي تجسيد لكل شيء : للحب ، للغضب ، للرقعة ، وللغف . ان فيها حنان المرأة ، وبراءة الطفل ، وقوة الرجل . من كل ذلك يصوغ مينة مدينته الفاضلة على لسان الفنان بطل قصته « الابنوسة البيضاء » .

رسام يلتقي صدفة بمهندس وزوجته ، يتعرف عليهما ، يرسمها فلا ينجح ، ثم يعرضان عليه مرافقتها كدليل في منطقة احراج الساحل السوري . في السيارة يتبادل الثلاثة اطرافا من حوار ، لكن احساس الفنان بجمال السيدة وروعة الطبيعة يجعلان روحه تتألق بشاعرية وطوباوية مذهلتين .

لا شيء يحدث في القصة اكثر من النظرات بين الرسام والسيدة ، مجرد حادثة عادية جدا . لكن دنيا الاحاسيس تجعلنا نقرأها بمتعة . ان المرأة هي مركز الكون عند مينة ، وحولها تجتمع النقائض ، تتحاور ، وتتصارع الى الابد . في قصته هذه وضع في الطرف الاول مهندسا يرمز للمادة والناحية العملية من الحياة ، وفي الطرف الثاني رساما يرمز للروح والناحية الجمالية منها ، ومن دون خط درامي حاول مينة ان يقيم قصة قصيرة .

من ناحية تقنية محضة ، لا يمكن لقصة ناجحة ان تقوم على مثل هذه العناصر . ولكن الكاتب يسحرنا بلغته الشعرية ، ويجعلنا نغرق في بحور القصيدة . ولتقرأ عن (يوتوبيا) مينة الاشتراكية ، حيث افسحت المادية مجالا رحبا للروحانيات ، ففيها تجسيد لاحلام وآمال الكاتب العريضة في الحياة : « اسمعا » يقول الرسام ، « ذات عام ، قبل ان يدركني الهرم ، سأبتاع على هذا الشاطئ

« الابنوسة البيضاء » وانما تنفرد على جميع قصص الكاتب ، ومن السهل العثور على شواهد متفرقة تؤكدتها في اعماله الاخرى .

ان عشق حنا مينة للطبيعة الى حد التصوف ، وتمني حياة النساك الزاهدين ، عشق آسر . لكن البحر بكل رفته وجبروته ، بكل بساطته وغموضه ، يظل في موضع الصدارة . رسامه يهتف بلسانه : « لا احب الجنة ، امضوا بنا الى البحر » . (٣) وفي الطبيعة يتجسد رمز الوطن ، وتتوحد مع جمالها قدسيته :

« في البرية تخرج الفراشات من شرائقها ، وفي الغابة ينزع الناس اقنعتهم ، وامام البحر يرجعون اطفالا . يدعونه يغسلهم ، يتعمدون كما في الاردن . . — الاردن ! هتفت السيدة .

— اردننا يا سيدتي . . نهرنا المبارك . (٤)

هز المهندس برأسه . ما اوجع الذكرى » .

ورغم اشتراكية حنا مينة فان ظلالاتها توراثية وانجيلية تظل ماثلة في لا شعوره بين حين وآخر ، تدعمها روحانيته الخالصة ، واحلامه بمجتمع تسوده المشاعية والبراءة والقوة والصدق والحب والسلام . لهذا نجد الكون يتوحد امام عينيه ، وتفيض مشاعر محبته ونشوته ، او غضبه وتحديه ، عليه ككل . اما المرأة — كما ذكرنا — فهي تحتل مركزه ، اما وبننا وحببية .

تظل صورة الام من خلال شكل الرسالة في قصته « رسالة من امي » ، فنقرأ مشاعر هذه الام القروية البسيطة التي تجسد لنا شخصيتها . انها تطلق على ولدها المسافر الذي يكتب في الجرائد ، وتسمع اخباره وتصريحاته فيرتاح ذهنها امام ما تعرفه وما تؤمن به ، وتقلق امام ما تجهله . لكن حبا قويا يفيض عبر سطور هذه القصة المصنوعة فيعبر عن تقديس حنا لأمه ، بل لجميع البسطاء من اهل قريته . انه في الواقع يؤكد لنا — ولو بشيء من الاحكام — انتماءه لصف الكادحين ، وتعلق المسحوقين بأدبه وشخصه . هذه المبالغات التي اسبغت للتظريف او كشهادة براءة من اي تغير في الانتماء الطبقي والانساني ، اتت على جاذبيتها بعيدة عن الافتناع ، فلا ننسى ان الرسالة خطت بيد طفلة تنقل كلاما يوميا وتضيف اليه اسطرا قليلة من مشاعرها ، لا اكثر . ان البساطة الحقيقية التي نفترض ان رسالة من هذا النوع تكتب بها ، كان من شأنها رفع سوية القصة وزيادة تأثيرها واقناعها لنا ، شأن تلك الرسائل الشعرية التي طلع علينا بها ذات يوم الشاعر الشعبي المصري عبد الرحمن الابنودي بين عامل في السد العالي وزوجته البسيطة في القرية ، والتي تدفع الدمع الى العين بصدقها وشفافيتها .

في قصة « هذا ما بقي منه » يصور مينة الحادثة الحقيقية لوفاة ابنته الصبية بالسرطان في النخاع الشوكي بعد اجراء عملية لها في لندن . لكنه بحس الفنان استطاع

ان يجعل موضوعه اعم واشمل : موضوع الموت والغربة ، وموضوع مواجهة قسوة الحياة بصبر وقوة .

انه لا ينسى ضمن هذا السياق لقصته الحزينة حسه الوطني ، فيصرخ : « مونت كارلو يا مونت كارلو ! على موائد الخضر ، كل ليلة ، تصدر اموال تبني مدينة مشاف . ويا باريس ، عطورك ، وغانياتك ، واللحى ، وحمامات العطور ، والملايين التي تنفق ، ونحن هنا . . طفل يزحف على الارض ، ورجل يئن على السرير ، وصبية تنحدر الى اللجة ، واب يلوب ويتالم ، وزوجة تضطرب في خشية وحرقة ، ومئات مثلهم ، في هذا البلد او ذاك ، يموتون في بلاد الغربة » . (٥) انه واثق ان دولة بتروولية واحدة تستطيع بسهولة اقامة عشر مشاف مماثلة . لكنها غربة المرء في وطنه ، فقدانه لادنى احساس بالامان او الرعاية . ان الصبر قد نفذ او شارف على النفاد ، والمرأة الفلسطينية تعبر عن مأساة تشردها هي وزوجها المريض وابنها الصغير : « لماذا كتب علينا ان نشرد من فلسطين الى لبنان ، ومن لبنان الى الكويت ، ومنها الى مصر ، ومن مصر الى لندن ؟ اما لتشردنا من نهاية ؟ » (٦) لكن النهاية هي الموت ، ويضطر مرغما الى رسم قناع ابتسامة امام ابنته ، مخفيا عنها النبا ، زارعا في روحها الامل بالشفاء والعودة ، وقلبه ينزف دموع الالم .

اما عن حب المرأة ، فهو يفتح عنه تصريحها وتلميحا:

عشق مزيج من الشهوانية والتصوف ، حب ممزوج بالطبيعة والاساطير والشعائر . ولنقرأ بمتعة كيف تمتزج زوجة المهندس الجميلة بالطبيعة ، وكيف تصبح في خيال الفنان اسطورة جديدة للملكة سبأ والملك سليمان :

« بدلت السيدة جلستها . انشمر الفستان اكثر . استمرت في تجاهلها واصرارها على اخراج رفيقها عن هدوئه المصنوع . حلت زر قميصها فبان جذرا النهديين الحليبيين . حقان من البلور على قمة كل منها شامة وردية . قال الرسام في نفسه : هي ذى بلقيسك يا سليمان » . ويتابع وصفه المأخوذ بالجمال في نشوة صوفية : « تأتي وتقرع الباب . كيف تتصورها تأتي يا سيدي ؟ انت تعرف السرو والشربين ، تعرف الابنوس الاسود والاحمر ، لكنك لم تر ابنوسا ابيض . لا تغمض عينيك فالطريق كثير المنعطفات . شجيرة الابنوس الابيض . الفضية ، الريانة ، الفارعة ، الممددة على سريرها العنبري ، في الجناح اللائق بملكة الشجر ، ترتعش بفعل انفاسك النافذة ظل الجدران . الغصن يتحول الى ذراع ، والتاج المورق الى رأس وشعر ، والجذع الى جسم ، ونحسات لم يحلم ، وحائك لم يحلم . مملكة سبأ اعطت اعجوبتها . دخلت في منافسة مع مملكة سليمان . بلقيس تنهض من سريرها العنبري — تسوي غلايتها وتتقدم باتجاه الجناح السلیماني . . والسيارة تمضي ، والرسام يتابع المشهد » . (٧)

او اتمام ، لتعطي املا بالمستقبل القادم . ولنقرأ وصفه للرجل في مكان آخر :

« توقفت السيدة واستدارت .. كان الدليل ، على الباب ، مفتوح القميص ، متطاير الشعر ، يقف متباعد القدمين ، ويداه في خاصرتيه . بدأ ، الان طويلا ، قويا ، متحديا ، كأنه الانسان للملكة التي تحدث عنها » . (١٠)

اما في قصص حنا مينة ورواياته فان اقرب ما يمثلها شخصا هم الاطفال . انه معجب ببراءتهم ، يتمنى الا تلتهمها وطأة السنين القاسية ، ويشفق عليهم اشفاق دوستوييفسكي في « الاخوة كرامازوف » على لسان (ايفان) . ولكن كاتبنا اقرب ما يكون الى تولستوى في استعادته الادبية لذكريات الطفولة . « على الاكياس » واحدة من اهم القصص القصيرة واكثرها تكاملا . انها تروي طفولة حنا البائسة ، وحماسه لان يعمل في الميناء عملا شاقا مضنيا مع رفاقه الصبية ، كي يكفل العيش لاهله واخوته ، بعد ان غاب ابوه البائع الجوال للحلويات طويلا . أجل ، من خلال يوم عمل شاق ، وفي زمن لا يتجاوز في اقصاه (٤٨) ساعة ، يسجل مينة صورة امينة حية مؤثرة للحياة في تلك الاونة ، ولعدد من الشخصيات التي لا تنسى . هذه القصة القصيرة جدا هي خامسة صغيرة جدا لاروع رواياته واشدها تأثيرا في العاطفة « بقايا صور » . واذا كان مينة هو الطفل في ادبه ، فان المرأة هي شهوته وقدسيته ، والرجل هو طموحه ، اما الطبيعة والظلم الاجتماعي الطبقي فانهما تحديه . ان شرف الانسان وصريرته ، ينبعان من هذا التحدي النبيل ، سعيا وراء الحفاظ على الكرامة الانسانية . هناك شيء واحد لا يقاوم : انه الموت ، ولكن طالما ان الموت قادم لا ندري متى وأين ، اذن لماذا لا يبذل الانسان كل شيء من أجل نيل القضية . لهذا ينزل بطله في « الياطر » ليترد الحوت من الميناء ، ولهذا يمزق بطله الباحث عن عمل في قصته « بطاقة توصية » واسطته لينطلق رغم فقره وجوعه رافع الرأس موفور الكرامة . ان القدر الميتافيزيقي والمصير الاجتماعي يندمجان في تحديهما للانسان ، لكن الانسان يملك قوى خارقة لا يكتشفها في نفسه الا في اللحظة الحاسمة ، عندئذ يبدأ الصراع : هذا الصراع الوجودي الاشتراكي هو محور ادب حنا مينة ، فيه حلمه وطموحه ، وفيه مجد الانسان في رفضه للظلم والاهانة .

مثل عديد من كبار ادباء العالم التقدميين يحتل الحب المكانة الاولى في عالم حنا مينة ، انه يشبه بذلك آراغون وناظم حكمت ونيرودا وغوركي . نراه يكتب كتابا كاملا عن ناظم حكمت ، ونراه اقرب ما يكون في ادبه لغوركي ، بحيث يمكن بسهولة ونجاح تحقيق دراسة مقارنة بينهما ، فيها ايفاء لحق الاثنين . ان الحب هنا يأخذ مدارا شاملا كونيا . انه الحب الانساني الواسع الذي يتحدث عنه اريك فروم في كتابه « فن الحب » كمثال لتقدم المجتمع البشري والعلاقات الانسانية . انه حب صوفي ،

الم اقل لكم ان في عشق مينة للطبيعة والمرأة شيئا توراتيا ، طقسيا ، مأخوذا ، آخذا ، يسحرنا بجمالياته ، ويعيد الى اذهاننا الاناشيد الفرعونية القديمة ، ونشيد الانشاد ، ولكن بلغة النثر القصصي ؟

هتف الرسام : « ايها الساقى جرة اخرى . لم يبق ؟ اذهب الى النبع واملاها . ثم دع السيدة تضع اصبعها فيها . لا تعجب ، الماء المتحول خمرا اشهى الخمر » . (٨)

لكن المرأة عند حنا مينة ، هذا الجسد الصقيل كالابنوس ، الابيض كالضباب ، الطري كالعشب ، الندي كأوراق الغابة ، ليست وحيدة . انها نصف الانسانية ، لكنه لا يقل تجيدا واعجابا بالنصف الاخر . وان كانت رواياته قد حفلت بالنساء الرائعات (حبيبة الطروسي في « الشراع والعاصفة » - الام في « بقايا صور » - وزنوبة العاهرة فيها ايضا - المرأة الراعية في « الياطر » .. الخ) فان رواياته حفلت بالرجال الاقوياء الرائعين في نبلهم وتحديهم وصدقهم ، رجال كالمرسلي والطروسي . من هذا المعدن من الرجال المنتفضين دفاعا عن الكرامة الانسانية ابو محمد بطل قصته « جمره السنديان » . لكن فلبقى مع صورة الرجال في علاقتهم بالمرأة قليلا ، لنبق مع الوجه الاخر للحب ، ولنبدأ بصورة الرجل المثالي كما يصفها لنا الكاتب في قصة قديمة تعود لعام ١٩٥٦ : « مثل جمره يكون الرجال الذين قدوا من السنديان ، قد يشيخون ، يهرمون ، تشيب شعورهم ، لكن رجولتهم تظل عارمة ، مختبئة ، تحت رماد اعوامهم ، فاذا هبت عليها ريح التحدي ، توهجت واطلت من عيونهم نارا تشعل ما حولها » . (٩)

ان « جمره السنديان » تحكي عن الرجولة التي لا تنطفئ رغم ان الرماد يخفيها . فأبو محمد يروي لزواره قصة (كاسم) الذي يهب رغم الحمى في رأسه ليدافع عن كرامة حيه في حفلة مصارعة ، وكيف يتغلب على خصمه . في النهاية وبعد ان ينصرف الزوار مأخوذين بالقصة المشوقة ، نعرف وحدنا ان كاسم هو ابو محمد نفسه عندما كان شابا .

حنا مينة يصوغ قصصا من حوادث عادية ، يومية ، كثيرا ما تفتقد الموقف الدرامي ، وتكتفي بالسرد . ولولا قدرة الكاتب البارعة على التشويق من خلال اسلوبه ودقة تصويره لشخصياته ومشاهد قصصه لما وقفت القصص على قدميها في هذا العصر . لكن مينة يشدنا الى قراءته اليوم كما تشدنا بعض قصص موباسان وتشخوف وهنري القديمة .

ان رؤيته للرجل المثالي ، كما تطل في اكثر من موضع وقصة ، صورة رومانسية . ان ابطاله هم اناة العليا : انهم يتجاوزونه احيانا ، رغم ان معاناتهم معاناته . هذه هي صورة التفاؤل المشرقة التي يبثها كاتبنا دون اسفاف

الفنان حرية وعبثا ، رافضا ان تحكم الحياة المتدفقة نظريات واعراف وعقول ، رافضا تجار النفوس الميتة الذين يتحدث عنهم غوغول . ان الحياة عند كاتبنا هي في العاطفة . هذه هي الرومانسية الثورية .

في قصته التسجيلية عن حادثة حقيقية جرت له ، وعنونها باسم « كاتب » ، يروي لنا كيف اعتقل - رغم مكانته الادبية والصحفية - وسيق في الشارع العام مكبلا بالاصفاد كأى مجرم عادي ، بسبب غلطة لم يكن مسؤولا عنها . من امتهان الكرامة هذا في واقعنا ، ينتقل بنا الكاتب الى وصف جو القصر العدلي والسجناء من اللصوص والمجرمين والقوادين والشاذين لكنه في لحظة انسانية ، يرفض فيها اولئك المذنبون في حق المجتمع ان يقادوا في اصفاد واحدة مع صبي يلاط به خلال اروقة القصر العدلي للمثول امام القاضي ، ينبري هو لهذه المهمة الشاقسة المهينة . ان الكرامة الانسانية ليست نابعة من مثل واعراف ساذجة ، وانما من تعاضد الانسان مع اخيه الانسان ، ومن مسح الغبار عن جوهرة المحبة والبراءة الكامنة في قلوب البشر .

لذلك في قصته « نار » التي تتحدث عن عمال صف الاحرف في المطابع ، عندما يشتبك العامل (عدي) مع رئيس العمال ابو العز المتكرر لطبقته ، من اجل اشعال مدفأة تطرد البرد القاتل ، ويكاد الامر ان يصل الى القتل ، نرى ابو العز يتردد ويضعف ، ربما تلح عليه انسانيته وانتهائه الطبقي الحقيقي ، وربما يخاف او يجبن امام تحدي زميله ومروؤسه . لكن المدفأة تشتعل في النهاية ، ويعود العمل الى مسيرته الطبيعية .

ان حنا مينة يرصد بوجه عام شخصياته في لحظة تحول مصيرية ، عملية كانت ام نفسية . انها لحظة اكتشاف القوة الكامنة ، لحظة اشراقة الحب ، او اندفاع التحدي . هذا هو شأن بطله ديمتريو . « مأساة ديمتريو » هي مأساة فنان من نوع آخر : عازف الكمان يعيش صراعا امام مرآة ذاته ، يعيش في المنطقة الواقعة بين الحقيقة والوهم ، وقد جاشت روحه بمشاعر الحب المستحيل . انه تجسيد لعذابات الحب وحرمانه ، ولصراع العقل والعاطفة . ان ديمتريو يصارع ديمتريو : الشعور ضد اللاشعور ، والفكر ضد الغريزة . هذه هي القصة ، اما العبرة فهي ان المرء لا يستطيع ان يهرب بذاته من ذاته . ان ديمتريو يشتعل من الداخل ، ومن الداخل ينطفئ ، يصرخ بشفتيه : « لا يمكن » ، ويضمهر في سره : « يمكن » . لكن اللهب الكاوي للحب يحاصره ، يغمره ، يحرقه ، ولن تعود صفحة حياته بيضاء كما كانت . ان الحب هو المطهر ، والمحرض ، ونقطة التحول الكبيرة المتجددة والجدلية التي تعطي الوجود مبررا ومعنى ، وتخلق في الارادة الانسانية قوة على الفعل ، وتعاضدا مع الجماعة ، وتشبثا بالكرامة والحرية .

أمل الا اكون قد اسرقت في المديح ، فأنا اكتب عن

يفرش ظله على الطبيعة والاشياء ، ويؤمن بالطبيعة الخيرة والبراءة ، ويخلق القيمة من خلال الوجود ، لا العكس ، فلا جوهر قبل الوجود . ان اللمسة الدينية لمفهوم المحبة المسيحي تختلط بنزعة السلام الاشتراكية لديه . انه يتجاوز دموية وعنف الثورة ، ويعيش بخياله في عصر قادم . القوة لديه حليف للرافة ، وليس للبطش . العهر لديه ليس درء الجوع عن الجسم ، بل عهر الفكر وبيع الكرامة . الشرف لديه رديف للحب وتحقيق الذات ، وليس الحفاظ على اعراف تقليدية موروثية وميتة . قد يختلف الناس حول هذه المفاهيم ، قد يرون فيها شيئا مطلقا ، قد يجدون فيها عدم وضوح ، قد يلحون فيها ظلالات وجودية واخرى مسيحية ، فيتساءلون عن موقعهما في فكره الماركسي - اللينيني الصرف . لكن الحياة اكثر صدقا من النظريات ، وكاتبنا يستقرىء الحياة ، منها يتعلم الدروس ، ويسجل الصور ، ويحلل الانفعالات ، ويغوص في اعماق البشر . الواقع اصدق من الكتاب ، واكثر شمولا لذوي البصيرة . لذلك فان عمق حس حنا مينة ورهافته تمكنانه من رؤية ادق ، رؤية انتقائية ، مستقبلية وانسانية . ان جدل الحياة لا يعني التناقض والتدمير ، بل يعني التكامل والبناء ، والاقتصاد وحده عاجز بالتأكد عن تفسير كل شيء في الحياة الانسانية : هاتان مقولتان ماركسيان عظيمتان يمكننا على ضوءهما قراءة الادب بشكل جديد منفتح ، فالادب اعم من النظرية وأسبق منها : ان النظريات تفسر الابداع ، وأحيانا تقرأ الواقع والتاريخ من خلاله . في كون حنا مينة ، الموت هو العالم المظلم ، والضعف هو العالم المستسلم ، والحب هو الأمل البتسم . وهو يجد دواء هذا العالم في تحديه ، بشيء من العبيية احيانا ولكن بكثير من الحيوية ، بالرقص كزوريا بطل كازانتراكس حتى تشرق الشمس من وراء الغمام وتنبير ارجاء الغابة . بعد هذا يبدأ الغناء والرقص . من قلب الكون تتصاعد موسيقى الغناء والرقص . واذا تلتقي الموسيقى وطلوع القمر ، تخفت الموسيقى احتراما للقمر ، وتتثبت جسوم الراقصين والراقصات ، اذرعهم وارجلهم ، على الوضع الذي كانت عليه . ومع اول شعاع فضي على الماء ، يسمع من الغاب والبحر ، عزف قيثار غير منظورة ، وتستأنف الجسوم ، في حركات تعبيرية ، رقصها الليلي ، بطيئا اولاً ، عنيفاً بعد ذلك ، حتى تتعب وتغرق ، وتفترز سمومها والامها ، وتضج الجهات الاربع بالفرحة الكبرى . سكت الدليل .

— مملكة مجنونة اذن ، لا تضم سوى المجانين .
اجاب الدليل :

— انت قلت يا سيدي ، وهذا افضل . لن يكون فيها حكماء ولا عقلاء ولا تجار « نفوس ميتة » . (١١)
الدليل بالطبع هو الرسام في قصة « الابنوسسة البيضاء » ، والحديث يدور عن اليوتوبيا التي يحلم بها مينة نفسه ، ويراها المهندس فوضى وجونا ، بينما يراها

قلت لها وقالت لي

د. يسرى خميس

قلت لها الحب ، فقالت الزواج . قلت : طيب .
وقفزت من نافذة العالم ●
تلقفتني غابة الحلم ، خريفية . لون البن ، لون
الطوب كان الجسد العاري . وسرت ، أجمع
الخريف في يدي — الورق البني والاصفر والاحمر
والاخضر والازرق — قوس قزح ، صنعته من ورق
الخريف ، تاجا ، لبسته وسرت ●

عندما سقطت انشقت صدري ، خرج مني أسد
مذهب ، في يده سيف ، ينظر لي بغضب شديد ،
يسألني عن سبب السقطة ، قلت له : الاشياء غير
واضحة . قال لي : الاشياء واضحة كالشمس .
قلت له : الاشياء عديدة الوجوه ، تفر مني كلما
حاولت ان امسكها . قال لي : الاشياء لها وجه
واحد ، حتى لو ظهرت تحت الشمس بأكثر من وجه
كالبثور . قلت له : التاريخ بطيء ، قال : غلطتك .
قلت له : النظام ، قال : غلطتك — انت الاول
والآخر . قلت له : الثورة قال : لن تقوم ثورة في
ليلة . الثورة تصنع . شارك . قلت له : عجزى ،
جسدي ثقيل ، قال لي : الجسد العاجز عن تحمل
الحياة ، لا يستحق ان يعيش . اقتفز الجسد . قلت
محال قال ممكن . هؤلاء الفقراء أهل قرينك ، هم الذين
حققوا المحال ، في لحظة خاطفة كالبرق عبروا . هم
الذين وصلوا تاريخك المقطوع بالدم جسرا من جنث
بشرية ، ورغبة نقية ، في عالم تسوده الحرية . هذا
سيني ، خذهُ وعد لقرينك . وتذكر : ما لا يدرك كله ،
لا يترك كله .

فرانكفورت ١٩٧٤

تصص قصيرة ليست لقااص ، اكتب عن قصص قصيرة وفي
ذهني روايات مؤلفها . لو دقتت لوجدت اكثر من ثغرة
فنية ، ولكن هذه القصص البسيطة هي خامات غنية
لاعمال روائية مدهشة او لاجزاء منها ، هي مجرد
تخطيطات . وحنا مينة في القصة القصيرة ، وربما في
الرواية ايضا ، يتألق لا بحدائث اشكاله ولا بمباشرة
مضامينه ، وانما بغنى موضوعاته المستمدة من الواقع ،
وبذلك الحس الانساني المرهف للعدالة الاجتماعية والكرامة
الفردية . ان أسلوبه المتميز بالرشاقة والشاعرية ، ولغته
ذات الايقاع المناسب والمعبر عن كل موضوع على حدة ،
في الحوار والوصف وشتى الانفعالات والمواقف ، السر وراء
نجاحاته في ان يجذبنا الى قراءته بمتعة ، بغض النظر عن
النقد والتحليل .

عندما يقابل في نهاية احدى قصصه (اليازلي)
رئيس العمال في المرفأ الرجل القوي الحنون الذي تعرف
وهو طفل من خلاله على أول صورة للحياة العملية — وقد
أصبح عجوزا هرما يبيع السكاكر للاولاد على طبلية في
احد شوارع دمشق ، يقول احد اصدقائه معرفا بعد ان
يذكره بنفسه :

« حنا اليوم معروف : كاتب .

فابتسم على شيء من أسى وذكرى ، واطرق وقال :

— نعم .. اعرفه .. بدأ الكتابة عندي . على

الاكياس » . (١٢)

- ١ - حنا مينة « الابنوسة البيضاء » ، منشورات اتحاد الكتاب
العرب - دمشق - ١٩٧٦ ، المقدمة .
- ٢ - قصة « الابنوسة البيضاء » ، ص ٣٦ - ٣٧ .
- ٣ - نفس المصدر ، ص ٢١ .
- ٤ - نفس المصدر ، ص ٢٣ .
- ٥ - قصة « هذا ما بقي منه » ص ٢٤٤ .
- ٦ - نفس المصدر ، ص ٢٥١ .
- ٧ - قصة « الابنوسة البيضاء » ، ص ١٨ - ١٩ .
- ٨ - قصة « الابنوسة البيضاء » ، ص ٢٥ .
- ٩ - قصة « جمره السنديان » ، ص ٢٥٩ .
- ١٠ - قصة « الابنوسة البيضاء » ، ص ٤٤ .
- ١١ - نفس المصدر ، ص ٣٨ - ٣٩ .
- ١٢ - قصة « على الاكياس » ، ص ٨٥ .